القيم الأخلاقية عند ابن سبعين

الدكتور: زازوي موفق
جامعة تلمسان

نسعى في هذه المداخلة النظر في طبيعة القيمة الأخلاقية في فلسفة التصوف عند ابن سبعين على أساس أن النظرة الأخلاقية عنده لا تخرج عن فكره النسقي الذي يتشكل من محطات ثلاثة وهي (نظريته في الوجود – ثم نظريته في المعرفة – وأخيرا نظريته إلى الأخلاق). فهو ينطلق من النظرة الأنطولوجية في قوله بوحدة الوجود إلى لحظة التحقق منها معرفيا أو إبستومولوجيا وصولا إلى ما يعرف بالممارسة الأخلاقية أو الأكسيولوجيا.

والمفارقة التي أثارتني في فلسفة التصوف عند ابن سبعين كونه واحدا من الذين فلسفوا التصوف والذي اصطبغ عنده بعقيدة وحدة الوجود المطلقة والتي تلجأ إلى التفسير الأحادي للعلاقة القائمة بين الله والعالم، أو إلى القول بهوية واحدة، أو إلى توحيد الله والعالم في هوية واحدة، مما ينتج عن هذا انتفاء الثنائية: خالق/ مخلوق، خير / شر، كافر/ مؤمن، جنة/ نار.

هذه المفارقة هي التي تجعلنا نتساءل:

- ما طبيعة القيم الأخلاقية عند ابن سبعين؟
- وما مفهومه للخير والشر؟ وهل يمكن القول بأن هذه القيم الأخلاقية تندرج ضمن الأخلاق المعيارية؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات تقودنا إلى الكلام عن التفسير الأحادي للعلاقة بين الله والعالم تحت ما يعرف بوحدة الوجود، ولهذا نقترح العناصر التالية للإجابة عن هذه الاشكالية:

1- وحدة الوجود

2- القيم الأخلاقية عند ابن سبعين

3_ مناقشة الرأي القائل بوحدة الوجود

خاتمة

1-وحدة الوجود:

هو مذهب الذين يوحدون الله والعالم ويزعمون أن كل شيء هو الله، وهو مذهب قديم أخذت به البرهمانية والرواقية والأفلاطونية الجديدة والصوفية[1] وهناك من يحدد الفرق بين وحدة الوجود والواحدية، على أساس أن هذا الأخير يرى أن العلاقة بين الله والعالم أو بين الله والذات الفردية هي علاقة

واحدة خالصة، فلا وجود لاختلاف قائم بينهما وهذا ما يصطلح عليه بالهوية في الاختلاف.

أما وحدة الوجود فهي مذهب فلسفي لا ديني يقول بان الله والطبيعة حقيقة واحدة وأن الله هو الوجود الحق. ومن الذين تأثروا به ابن عربي وابن سبعين.

وتصنف في المقام الأول ضمن فلسفة الواحدية المطلقة، فحجر الزاوية في مذهبهم هو القول بالوحدة أي وحدة الوحدات التي تحضر في أي شيء وتلف كل كثرة وتجمع الكائنات جميعها في كيان واحد[2].

- مفهوم وحدة الوجود عند ابن سبعين:

- يقوم مفهومه للوجود على فكرة الله فقط الذي يمثل الوجود كله والله عنده يمثل الوحدة المطلقة مقصيًّا في ذلك القول بالثنائية. ويعني ابن سبعين بذلك أنه «لا موجود إلا لالله أو الله فقط، أو ليس إلا الله أو ليس إلا الأيس (الوجود) فقط وهو هو.»[3]

- والقول بوحدة الوجود يعني أن الله والعالم متحدان في هوية واحدة تعرف بالهوية في الاختلاف.

من هنا يعرف «الله على أنه الوجود اللامتناهي، ذلك أن اللامتناهي الحقيقي هو ما لا يوجد شيء خارجه ولا يوجد سيء غيره.»[4]

هذا يعني أن العالم هو الله، والله والعالم شيء واحد، فلا يبقى هناك خالق ومخلوق، ولا وجود لاختلاف ولا وجود لكثرة لأن الكل يتحد في الواحد وهو الله.

– ولذلك فإن قوانين المنطق ممثلة في مبدأ الهوية، وعدم التناقض والثالث المرفوع لا تجد لها تطبيقا في نظرية وحدة الوجود لأنها تقوم على الواحد بينما المنطق يقوم على الكثرة ويتطلب الثنائية والاختلاف.

وتأسيسا على هذا يذهب ابن سبعين إلى الاعتقاد بأن العامة نتيجة لجهلها وغفلتها قالت بالكثرة والتعدد «فالواحد الحق ليس بعدد لأن العدد مركب والمركب له أجزاء والحق لا يتجزأ ولا ينقسم لا بالوهم ولا بالعقل ولا بالحس، وهذا بيّن بنفسه وظاهر لذي حجا، فإذا لم يكن بشيء من ذلك كله ويتنزه عن هذا فهو واحد ووحدته بالذات»[5].

ما عن كيفية خلق العالم فإنه يرى بأنه لا وجود لخلق من عدم وإنما العالم فاض عن الحق، وهذا الموجود الفائض حسب ابن سبعين وجودًا اعتباريا لا حقيقيا.

ثم يقدم بعد ذلك ترتيبات اعتبارية يصنف من خلالها الوجود وهي:

أ/ الوجود المطلق: وهو الله ويقصد به الماهية المطلقة الأصلية الواحدة»[6] وهذا يعني لا موجود غيره ولا أحد إلاّ هو. فهو يمثل دائرة الوجود لأنه هو المحيط بكل شيء وذكر اسمه معناه ذكر كل شيء.

ب/ - الوجود المقيد: ويقصد الوجود الآخر أو العالم ممثلا في أنا وأنت وكل الذوات الموجودة، وسميّ مقيدًا لأن هذه الذوات الخارجة عن الوجود المطلق مقيدة به في انتسابها إليه وفي وجودها، فلا ماهية لها إلا من خلال الماهية الأصلية المطلقة.

ج/ - الوجود المقدر: وهو علم الله في الأزل، وكل ما هو حادث في المستقبل وهذا الوجود هو الآخر لا معنى لوجوده إلا بالوجود المطلق.

انطلاقا من هذه التقسيمات يصل ابن سبعين إلى نتيجة هي أن الوجود المطلق هو الوجود الحقيقي وهو الذي يدركه الخاصة وهم المتصوفة، أما الوجودان: المقدر والمقيد هما وجودان اعتباريان، والاعتقاد فيهما يكون من نصيب العامة وهم المتوهمون والغَفَلَةُ.

لذلك فهو يدعو مريديه إلى تبديد ذلك الوهم عن طريق التوبة للوصول إلى الحقيقة ممثلة في إدراك الوجود المطلق.

يقول في هذا الصدد: «فالمقدر لا شيء وأنا وأنت لا شيء، فإذا أنا تائب عن الغفلة التي حملتني على قولي، ما رأيت شيئا إلا رأيت الله بعده ثم عليّ قولي ما هو أقرب من هذا وهو: ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله. وأنا الآن أقول هو هو هو، ثم نقول هو ونصمت، ثم نشير، ثم نقطعها، ثم لا ثم إلا الحقد المحض، ثم لا إله إلا الله، ثم نتوب.» [7]

هكذا نجد ابن سبعين يصل إلى إثبات وحدة الله ووحدانيته المطلقة وما تلك التقسيمات الاعتبارية الاّ ضلال وأوهام وغشاوة أمام عين البصيرة، فمتى انمحت هذه الوجودات انقشعت الحقيقة في إدراكها للوجود الحقيقي الذي تذوب فيه كل الاختلافات وكل التمايزات الاعتبارية وتتحول الكثرة إلى وحدة.

2-مفهوم القيم الأخلاقية عند ابن سبعين:

إذا كان ابن سبعين يقدم نظرته عن الوجود وهي أن الله هو الوجود الحقيقي وهو الوحدة التي تنصهر وتختفي فيها كل التمايزات والاختلافات فإن نظرته للأخلاق وللقيم الأخلاقية لا تخرج عن هذا الفهم.

فمبحث الأخلاق عند ابن سبعين يدخل في إطار النسق الذي حدده للوجود وللمعرفة. لأن الغرض من بحث الأخلاق عنده إثبات الوحدة المطلقة.

وتكون بذلك الأكسيولوجيا طريقا لإثبات الحق أنطولوجيا.

وإذا كانت الأخلاق عموما تبحث فيما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني (أي أنها أخلاق معيارية) فإنها عند ابن سبعين تتحول إلى معرفة الفاعل الحقيقي. فتنتقل عندها الأخلاق من المعيارية إلى الإطلاقية.

ولما كان ابن سبعين فيلسوفا ومتصوفا فإنه أفرد للأخلاق جانبان أحدهما نظري والآخر علمي. الأول ذو طبيعة ميتافيزيقية والثاني سلوكية.

والأخلاق النظرية عنده تقوم على مفهومه للخير. فالخير هو الذي يحقق للإنسان غايتين هما السعادة والكمال، الأولى هي الشعور بالرضا أما الكمال هدفه تحقيق الوجود.

أما الفعل الإنساني حسب ابن سبعين تتقاسمه ثنائية من المتناقضات: خير/ شر، صلاح/ فساد، حق/ باطل، شرف/ خسة.

هذا ما جعل أفراد النوع الإنساني يتفاوتون بينها من شقي إلى سعيد ومن جاهل إلى عالم. وعلة ذلك في رأيه يعود إلى

الغفلة لتي تجعل من بعض الناس أشرارًا وأشقياء، في مقابل السعداء التي ارتقت نفوسهم بفضل السلوك والهمم الجليلة.

يقول ابنسبعين مؤكد ذلك: "إياك والغفلة والتغافل فإنهما يستلان الخير ويخصصان الشر، والغافل والمتغافل واحد، لأن الغافل تؤديه غفلته إلى الفساد والمتغافل يؤديه تغافله إلى الفساد فقد اتفقا في المحصول الذي هو الفساد."[8]

والخير في رأي ابن سبعين هو في الأخير مطلب كل واحد سواء كان سعيد أو شقيا. لكن هذا الخير المطلوب أنواع:

1-ما يراد لنفسه ولغيره ويقصد به العلم.

2-ما يراد لنفسه لا لغيره ويقصد به الخير المطلق وهو الله.

3-ما يراد لغيره لا لنفسه ويقصد به الخير لما يقدمه من منفعة لكنه شر لما يقدمه من ضرر أو ألم كالدواء.

وينتهي من هذه التقسيمات إلى أن الخير المطلوب عند الإنسان هو الخير الذي يراد لنفسه لا لغيره وهو الخير المطلق وهو الله (الكمال).

وعندما تحصل الوحدة بين الإنسان والله يتحقق الخير ويختفي الشر وتختفي الكثرة في الوحدة.

- والسعادة لا تتحقق إلا بحصول الوحدة التي يفني من خلالها الإنسان الواصل في الخير المحض.

- ولما كانت اللذة الدافع الأساس لكل سلوك أخلاقي فإنه عندما تحصل السعادة تحصل معها اللذة التي تعود في رأيه إلى الإيمان بالوحدة المطلقة والكفر بالأثنينية لأنها وهم وغفلة وحجاب.

نخلص إلى أنه لا مجال للقول بالثنائية، ولا مجال للخير والشر، ولا للإيمان والكفر، ولا للحق والباطل، لأن كل هذه الثنائيات تختفي في الوحدة المطلقة التي لا يصدر عنها إلا الخير.

وكأننا هنا بصدد الانتقال من عالم المتناقضات التي تفترض الكثرة إلى عالم الوحدة المطلقة التي تفترض الواحد فينتفي بذلك الشر من العالم.

أما الجانب العلمي من الأخلاق يتمثل في مجموع السلوكات الأخلاقية التي تأخذ بيد المريد لتحقيق الكمال وحصول الوحدة لديه.

3-مناقشة الرأي القائل بوحدة الوجود:

يمكن النظر إلى فلسفة الوجود التي يقول بها ابن سبعين على أنها ترى في الوحدة أن الموجود واحد لا تعدد فيه، ولا تقسيم إلى واجب وممكن، وقديم وحديث، وعلة ومعلول، ولا إلى مادة وروح ولا إلى وجود طبيعي ووجود خارج الطبيعة، وإنما هو واحد من جميع جهاته، وهو أبدي أزلي لا يحول ولا يزول... وبكلمة، إن مذهب وحدة الوجود لا يميز بين الله والعالم، ولا بين الخالق والمخلوقات، وهو أشنع المذاهب الإلحادية على الإطلاق»[9] .

خاتمة:

ما يمكن أن نخلص إليه:

أ- أن الأخلاق في فلسفة التصوف عند ابن سبعين، تقوم على الانتقال من الأخلاق التصنيفية: رذائل/ فضائل إلى تصنيفية أخرى حضور/ غياب.

ب- ثم إن الأخلاق عنده تقوم على الانتقال كذلك من معيارية الحكم إلى الإطلاقية،

ج- وأخيرا هي انتقال من نظرية التسيير والتخيير إلى نظرية الكشف وهي إلغاء الفاعلية الإنسانية وإثبات الحضرة الإلاهية التي ينجر عنها إلغاء المسئولية والعدالة الإلاهية.

الهوامش:

1- جميل صليا، المعجم الفلسفي، ص **569**.

2-د. أرثور سعد ييف، د توفيق سلوم، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار دار الفارابي بيروت، لبنان، الط **2**، **2001**، الجزائر، ص **316**-**317**.

3- محمد العدلوني الإدريسي، التصوف في فلسفة ابن سبعين ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ط**1**، الدار البيضاء **2006**، ص .**31**

4- المرجع نفسه.

5- بد العارف، ص .**5**

6- محمد العدلوني الإدريسي، التصوف في فلسفة ابن سبعين، ص **38**.

7- ابن سبعين، الرسالة الرضوانية نقلا عن محمد العدلوني، ص **328**.

8- الرسالة الفقيرة، ص **20** نقلا عن محمد العدلوني.

9-من كتاب فلسفات إسلامية محمد جواد مغنية، ص **687**.